

التمهيد^١

نقل الإمام أبو حامد محمد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين رواية حول النوايا الصادقة، والإخلاص تبعث على العبرة وهي: «أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً، فجاءه قوم، فقالوا: إن ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه، وقصد الشجرة ليقطعها؛ فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة. قال: وما أنت وذاك؟ تركت عبادتك، واشتغالك بنفسك، وتفرغت لغير ذلك؟ فقال: إن هذا من عبادتي. قال: فإنني لا أتركك أن تقطعها. فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض، وقعد على صدره. فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك. فقام عنه، فقال إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، وما تعبدها أنت، وما عليك من غيرك. والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها، وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لي من قطعها. فباذبه للقتال فغلبه العابد، وصرعه، وقعد على صدره. فعجز إبليس، فقال له: هل لك في أمر، فصل بيني، وبينك، وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك. فأطلقه، فقال إبليس: أنت رجل فقير، لا شيء لك، إنما أنت كلُّ على الناس يعولونك. ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك، وتؤاسي جيرانك، وتشبع، وتستغنى عن الناس. قال: نعم. قال: فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما، فأنفقت على نفسك، وعيالك، وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك، وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها، ولا يضرهم قطعها شيئاً، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها. فتفكر العابد فيما قال؛ وقال: صدق الشيخ لست بنبي، فيلزمي قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها، فأكون عاصياً بتركها. وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك، وحلف له. فرجع العابد إلى متعبده. فبات، فلما أصبح، رأى دينارين عند رأسه، فأخذهما، وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده، فلم ير شيئاً، فغضب، وأخذ فأسه على عاتقه. فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة. فقال: كذبت والله



١. تم تعريب هيكمل هذا المقال وتعديله عن فصل في كتاب «روانهای روشن» للأستاذ الدكتور غلام حسين يوسفی.

ما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة، فقال: هيهات. فأخذه إبليس، وصرعه، فإذا هو كالصقور بين رجله، وقعد إبليس على صدره، وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟ فنظر العابد، فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا غلبتني، فخلّ عني، وأخبرني كيف غلبتني أولاً، وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أول مرة لله، وكانت نيتك الآخرة، فسخرني الله لك. وهذه المرة غضبت لنفسك، وللدنيا فصرعتك. هذه الحكايات تصديق قوله تعالى: إلا عبادك منهم المخلصين، إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص.» (الغزالي، ج ٦، ١٣٥٩ش: ١٠٤٩-١٠٥١)

الإخلاص في القول والفعل

وحقيقة كما يهتم الإنسان بمظهره، فإنه إذا ما تحلّى في جميع شؤون حياته بالإخلاص والنوايا الخالصة، لكان العالم مشرقاً محبباً بدل أن يكون حالكا بغيضا أسيرا للضياغ. وأينما اختفى الصدق والإخلاص، تجلى المكر، والخداع تجليا باطلا لاخير فيه. ومن الواضح أن الأعمال التي لا تصدر عن الصدق والإخلاص، لا تثبات لها ولو حسنَ مظهرها. وتكون مصداقا لهذه الحكاية التي نقلها سعدى الشيرازي في كلستان: «كان زاهد في مآدبة ملك، فجلسوا للطعام، فلم يأكل إلا أقل مما كان يشتهي، وعندما قاموا للصلاة، صلى أكثر مما كان متعودا عليه، ليزيد الناس فيه ظنّ الصلاح... فلما رجع إلى منزله، طلب مائدة ليتناول. وكان له ولد حاذق، قال: ألم تأكل شيئا وأنت في مآدبة السلطان؟ قال: لم آكل عندهم شيئا لمنفعة. فقال الولد: عليك بقضاء الصلاة لأنك لم تؤدّ صلاة تنفعك.» (سعدى الشيرازي، ١٣٢٠ش: ٥٧-٥٨) ولهذا كان حافظ الشيرازي في نقد عصره، يلوم الرياء، والكذب قائلا: «إن الله برئ مائة مرة من جبة يخادع صاحبها» وكم من جباب يرى حافظ الشيرازي وجوب إحراقها في النار.

وللأسف الشديد يزخر تاريخ البشرية، في كلّ المجالات، من الأقوال، والأعمال المزخرفة في الظاهر، والخالية عن الروح والحقيقة، تلك الأقاويل والتصرفات التي لم يتفق ظاهرها والجوهر، أو بعبارة أخرى: خالية عن الصدق، والإخلاص. وطالما زين المستعمرون اعتداءاتهم على البلاد والشعوب، بكلمات منمقة رنانة تتجلى أحيانا في ثوب الحماية عن الناس، وحب البشرية! لقد ذكر المورخون أن هتلر عندما قام بتنفيذ

خطة (الأثلوس) التي تعنى ضمّ النمسا إلى ألمانيا مدعيا توحيد شعبيين مشتركين في الأعراق، والتقاليد، فإنه كان ينتقم من حرمانه في فينا أيام شبابه والذي تمثل في تسكعه، وجوعه، وفقره، ورفضه في امتحان قبول أكاديمية الفنون الجميلة عام ١٩٠٧م. وهذا الأمر دعا ألكسندر الأول قيصر روسيا الطاغى - الذي استقر حكمه على العبودية - أن يبدى عامى ١٨٠٥ و١٨٠٦م عن أسفه، وقلقه تجاه تصرفات بونابرت، وزوال جمهورية فرنسا بواسطته، موجهها إليه انتقادات تتم عن نصره القيصر للحرية، ليسوق الأوساط الليبرالية في أوروبا ضد نابليون. وقد تعدل المدارس والمذاهب الفكرية عن أصولها عمليا، لتصبح غطاء لمقاصد أخرى. وإن لم يكن الأمر كذلك فلماذا يكتب رومان رولان الكاتب الفرنسى المعاصر فى روايته الشهيرة جان كريستوف التى تلقى نظرة متأنية على الحضارة المعاصرة فى فرنسا، وألمانيا: «أيتها الحرية المسكينة، لم يخلق هذا العالم لأجلك.» هذا بالرغم من الجهود الفكرية والقلمية والتضحيات التى قام بها البشرية لنيل الحرية.

وهناك مفكرون ذوو شهرة واسعة قاموا بنشاطات تدعو الإنسان إلى الدهشة. فعلى سبيل المثال قال فولتير، الكاتب والفيلسوف الفرنسى كلمته الشهيرة: «إننى أرفض ما تقولون رفضا تاما، إلا أننى أضحى بنفسى دفاعا عنكم ليسمح لكم بالتعبير عما تقولون.» ومع أنه ترجم قطعة «أكون أو لا أكون» لشكسبير ونظمها، لكنه عندما رأى تزلزل مكانته الأدبية بعد ترجمة نتاجات شكسبير عام ١٧٧٦م، قام بتوجيه انتقادات إلى نتاجات شكسبير، بل حاول عن طريق جامعة فرنسا أن يمنع عرض تلك النتاجات.

فعلى كل حال إذا تتبعنا حياة الإنسان والمجتمعات البشرية، نجد كثيرا من الأقوال والأفعال التى تكاد تخلو من الإخلاص أو لا تتصف به بتاتا، ولهذه الأسباب تفقد قيمتها من حيث الواقع. وإذا كان النبى (ص) رأى قيمة الأعمال فى النيات (الغزالي، ج ٦، ١٣٥٩ش: ١٠١٠ و١٠٢١ و١٠٢٧) بل فضّل نية المؤمن على عمله (المصدر نفسه: ١٠٢١)، فإن هذا الأمر لها مفاهيم عميقة، وقوانين راسخة. ولهذا قال النبى (ص): «أخلص العمل يجزيك منه القليل.» (المصدر نفسه: ١٠٤٨) وذلك لأن: «كل عمل يبادر به الإنسان بمثابة جسد، تكمن روحه فى إخلاص القلب... والعمل إذا فقد الإخلاص يهدم بسرعة، كالبنيان الذى لأساس له، ويقبل على الضياع... والرياء كالمسم إذا اقترن بالأعمال، ضيعها.» (عبادى،



۱۳۴۷ش: ۹۸) كما قال مولوى:

مابرون را ننگريم وقال را ما درون را بنگريم وحال را
- نحن لانظر إلى صوركم وكلماتكم، إنما نل نظر إلى قلوبكم، وأحوالكم.

إخلاص الإمام على (ع)

وهذا المقال يريد أن يعبر عن خير نموذج للفكر الصائب، والإخلاص في العمل، بقى لنا في الشعر الفارسي؛ وهو حكاية حول أمير المؤمنين الإمام على (ع). فإن ما قام به على (ع) في هذا المجال يدعو إلى الدهشة والإعجاب كباقي فضائله. ولهذه الأسباب إن هذه الحكاية خليقة بوقفة متأنية، حيث نظمها مولوى في دفتر الأول من المثنوى:

از على آموز اخلاص عمل شير حق را دان منزله از دغل...

- تعلم درس الإخلاص من على (ص) واعتبر أسد الحق نزيها من الغش، والخداع. ويواصل الشاعر أن عليا (ع) تغلب على بطل من جيش العدو، وأشهر السيف ليقتله. إلا أن هذا العدو تهتك في البصق على وجه على (ع).

آن خدو زد بر رخى كه روى ماه سجده آرد پيش او در سجده گاه
بصق على وجه يسجد عنده وجه القمر فى المسجد.

وألقي على (ع) السيف على الأرض فورا متخليا عن الخصم، مآدى إلى دهشته من هذه المبادرة، وحيرته من العفو المستبعد.

گفت بر من تيغ تيز افراشتى از چه افكندى مرا بگذاشتى؟
آن چه دیدى بهتر از پيكار من تا شده ستى سست در اشكار من؟
آن چه دیدى كه چنان خشم نشست تا چنان برقى نمود وبازجست؟
آن چه دیدى كه مرا زان عكس دید در دل وجان شعله اى آمد پديد؟

- قال: شهرت على سيفا صارما، فلماذا ألقيته على الأرض تاركا إياي؟

- ماذا رأيت أكثر فضلا من نزالى؟ حيث جعلك تتباطأ فى قتلى.

- و ماذا رأيت إذ هدأ غضبك بحيث تصاعد كالبرق ثم انطفئ؟

- ماذا رأيت إذ ظهرت لى من شعاعه، بارقة الهداية فى قلبى وروحى.



وكان من حقّ البطل أن يبدي دهشته، إذ كيف يمكن أن يتغلب مقاتل على عدوّ منتهك فظّ ويغتر له؟! ولهذا خاطبه سائلا: ماذا رأيت أجلاً شأنا من الكون والمكان إذ جعلك تهب لي حياتي؟ تُسمّى أسد الله لشجاعتك ولكن «لم يزل الناس لم يعرفوا مدى مروءتك.» فالخصم رأى ضعفه الحقيقي عند شخصية على (ع) وكرامته، وكان يشعر بالحقارة، وكما عبّر مولانا قُتِلَ دون سيف وهذا كان قضاء الله. ولكن كان يقلقه سؤال ويشعر أن هناك سرّاً إلهيا. وألحّ عليه اضطرابه وهيجانه في الكشف عن هذه الأسرار، فأصرّ قائلا:

اي على كه جمله عقل وديده اي شمه اي واگو از آنچه ديده اي
 تبغ حلمت جان ما را چاك كرد آب علمت خاك ما را پاك كرد...
 يا تو واگو آنچه عقلت يافته ست يا بگويم آنچه بر من تافته ست...
 در محل قهر اين رحمت زچيست؟ ازدها از دست دادن راه كيست؟

- يا علىّ، يا مظهر العقل، والبصر، تحدّث قليلا عمّا رأيته.

- فإن حسام حلمك شقّ روحنا، وطهرّ معين علمك هذا الجسد التراب.

- فإما تتحدّث عما وجدته عقلك، أو أتكلّم عما جعلني أنصهر.

- فلماذا ترحم محل الغضب؟ ومن كانت طريقته ترك الثعابين؟

وما يقوله علىّ (ع) في الجواب يتمثل كشعاع، يصدر عن نفس طاهرة، وروح كبيرة لامثيل لها. لأنه لشدة تعلقه بالله تعالى، لا يريد أن يكون هناك دور ولو بشكل ضئيل لمشاعره الشخصية في التعامل مع العدو المغلوب. فلماذا يترك الخصم عندما يرى تهتكه تجاه ذاته كي لا يتبادر يده بالسيف إلا لوجه الله تعالى. وضمن مولوى جواب هذا الرجل العظيم في أبيات ذات فحوى، من المستحسن نقل عدد منها:

گفت من تيغ از پی حق می زرم بنده حقم، نه مامور تنم
 شیر حقم، نیستم شیر هوا فعل من بر دین من باشد گوا
 ما رمیت إذ رمیتم در حراب من چم تیغم وان زنده آفتاب
 رخت خود را من زره برداشتم غیر حق را من عدم انگاشتم
 سایه ای ام، کدخدایم آفتاب حاجبم، من نیستم او را حجاب...



كَه، نيم كوهم زحلم وصبر ووداد
 آن كه از بادی رود از جا خسی ست
 باد خشم و باد شهوت، باد آز
 چون خدو انداختی در روی من
 نيم بهر حق شد ونیمی هوا
 گبر این بشنید ونوری شد پدید
 گفت من تخم جفا می کاشتم
 تو ترازوی احد خو بوده ای
 من غلام موج آن دریای نور
 قرب پنجه کس زخویش وقوم او
 کوه را کی در رباید تند باد؟
 زان كه باد ناموافق خود بسی ست
 برد او را كه نبود اهل نماز...
 نفس جنبید وتبه شد خوی من
 شركت اندر كار حق نبود روا...
 در دل او تا كه زناری برید
 من تو را نوعی دگر پنداشتم
 بل زبانه هر ترازو بوده ای...
 كه چنین گوهر برآرد در ظهور...
 عاشقانه سوی دین كردند رو

(الرومی مولانا، ۱۹۲۵م: ۲۲۹-۲۴۵)

- قال: إني أحارب لوجه الله تعالى، وإني عبد الله ولست أنانيا عبدا للذات.
- إني أسد الله ولست أسد الهوى والغرور، وأفعالي تشهد على ديني.
- إني أؤمن بـ«ما رميت إذ رميت» (الأنفال: ۱۸) لأنتى شعاع، يصدر من نور الحق.
- إني أزلت حجاب الذات، واعتبرت كل شىء عدما سوى الحق.
- إني كالظلم لا وجود لى إلا بوجود الشمس، وإني أمثل حلقة وصل بين الله والعباد، لأمنع معرفتهم إياه.
- لست خفيفا كالحشيش بل يمثل صبرى، وحلمى، وعدلى، الجبال الراسخة، وكيف يمكن للرياح أن تحركها من مكانها؟
- والحقير من حركته ربح، لأن الرياح المعارضة كثيرة.
- لا يستولى الغضب، والهوى، والحرص على من يتخذ الصلاة سلاحا له.
- فإنك عندما بصقت فى وجهى، غضبت نفسى وساء خلقى.
- وأصبح نزالى شطرين: شطر لوجه الله، والآخر للهوى والانتقام، بينما لايجوز حضور الهوى فى الأمور الإلهية.
- وعندما سمع الكافر هذا المقال ظهرت أمارات الهداية فى قلبه حتى تطلع إلى

تحطيم قيود الكفر.

- وقال: إننى كنت أزرع بذور الظلم إذ اعتبرت شخصيتك غير التى أنت عليها.
 - إنك ميزان، يتصف بصفات الحق بل أنت لسان الميزان.
 - وإننى أصبحت غلاما لأمواج بحر مشعّ، تعلو عليه مثل هذه اللآلى.
 - وهكذا أقبل على الدين إقبال المحبين من كان قريبا من ذاك المشهد.
- قد سمع علىّ (ع) من النبى (ص) أن الله لا يقبل إلا ما خالص له، وقد ثبتت هذه الحقيقة فى ضميره بحيث لم يكن يفكر فى تصرفاته إلا بالله وبالحقيقة، ولهذا بلغ قمة الكرامة، والرجولة، والإنسانية وكان لتصرفاته تأثير حتى فى نفوس الكفار.

النتيجة

رأينا فى السطور السابقة التى تم تعريبها وتعديلها عن كتاب روانهاى روشن للأستاذ المرحوم غلام حسين يوسفى، صورة جميلة للإخلاص وصدق النية، صورها لنا مولانا جلال الدين فى غضون مثنوياته، وأدهشنا ما قام به الإمام علىّ (ع) إذ لم يقم بقتل المقاتل بعد أن غلب عليه، بل عفا عنه، خوفا من أن يكون قتل ذاك الخصم انتقاما شخصيا، وهذه الميزة جزء من فضائل الإمام علىّ (ع) إذ وصف الخصم له بعد ذلك فضائله واعترف بمروءته، وشجاعته، وإيمانه. ومن ناحية أخرى أثر إخلاص الإمام (ع) على من كان حاضرا فى ذاك المشهد، وأقبل على الإسلام.

إن الإخلاص أو على حد تعبير الجنيد «تصفية العمل من الكدورات»، من التجارب المعنوية البعيدة المنال، وكم يعسر تنقية النفس لبلوغ الإخلاص، والوصول إليه فى المجالات الفردية، والاجتماعية. وانعكست حكاية مولوى فى مرآة الشعر الفارسى انعكاسا جميلا فاتنا، يحفز الإنسان ليغترف قدر استطاعته من بحر إخلاص علىّ (ع) وصفائه، ومروءته.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.



بلخي، جلال الدين محمد. ١٩٢٥م. *مثنوى معنوى*. تصحيح نيكلسون. هولندا: مطبعة ليدن.
سعدى الشيرازى، أبو محمد مصلح بن عبدالله. ١٣٢٠ش. *كليات سعدى: كلستان*. تصحيح محمد على
فروغى. طهران: انتشارات وزارت فرهنگ.
عبادى، أبوالمظفر منصور. ١٣٤٧. *التصوية فى أحوال المتصوفة*. تصحيح غلام حسين يوسفى. طهران:
بنیاد فرهنگ ایران.
الغزالي، أبو حامد محمد. ١٣٥٩ش. *إحياء علوم الدين*. ترجمة مؤيد الدين محمد الخوارزمي. دراسة
وتحقيق حسين خديو جم. طهران: بنیاد فرهنگ ایران.
يوسفى، غلامحسين. ١٣٨٦ش. *روانهای روشن*. تهران: سخن.

